

(٧)

الإسلام والمرأة

محمد صلى الله عليه وسلم كان عظيما في صدقه حتى سمي بالصادق الأمين، وكان عظيما في خلقه، حتى كان أشرف الخلق كلهم أجمعين. وحتى قال القرآن الكريم فيه:

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ (القلم ٤)

ولهذا كانت دعوته كما يقول عليه الصلاة والسلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وعندما يسأله أبو هريرة رضى الله عنه وما حسن الخلق يا رسول الله فيقول صلوات الله عليه: (تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك).

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة إلى الحق وإلى الخلق الحسن وإلى الحب بين الناس والألفة والود، دعوة لا إجبار فيها ولا قهر ولا عنف، ويقول سبحانه وتعالى:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٣١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٣٢﴾ (الغاشية ٣١-٣٢).

ويقول جلّت قدرته أيضا :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَاْ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ

(الشورى ٤٨)

وهكذا كانت الدعوة الإسلامية دعوة تخاطب القلوب وتخاطب الوجدان فتنفذ إلى

أعماق النفوس فتحى فيها خير ما أودع الله فى النفس البشرية من محبة وخير وصفاء. دعوة أعطت كل ذى حق حقه فقد أعطى للرجل حقه وللمرأة حقها وللصغير حقه وللوطن حقه وللنفس البشرية حقها. وإذا كانت حقوق الرجل مكفولة إلا أن حقوق المرأة كانت مسلوقة منذ القدم لا تتمتع بما يتمتع به الرجل، فهى التى لاقت من الظلم فى الجاهلية ما لاقت وتحملت من أذى الأهل ما تحملت، وهل أظلم من أن يبدد الأب ابنته دون سبب أو جرم جنته، لكنه الخوف من العار كما كانوا يتحدثون ويقولون وهم المسئولون عن انحرافها وإعوجاجها إذا انحرفت عن الصواب أو إعوج سيرها إن كانوا يفقهون. وهكذا عن النور عميت الأبصار وعن الخير أغلقت القلوب وعلى الشر طبع وعودت النفوس ويحدثهم ويحذرهم القرآن الكريم عن يوم القيامة، وما هم فاعلون فيه:

وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿أَيَّ ذَنْبٍ قُنِيتَ﴾ (التكوير ٨-٩) .
كما يصف حالهم سبحانه وتعالى فيقول:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۖ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
(النحل ٥٨-٥٩)

وهكذا كان حال المرأة قبل الإسلام تقابل قبل أن يراها نور الدنيا وتراه مقابلة لا يرضاها إنسان لإنسان فتسود الوجوه ويتوارى أبوها عن الناس من سوء ما بشر به. حتى إذا كبرت وهو على بقاءها على قيد الحياة غير راض أو مطمئن، ولكن لا يلبث أن يزين له الشيطان وأدها حتى يتخلص مما قد تسببه له من خزي أو عار. وإذا كان هذا هو حال المرأة فى الجاهلية فإن حالها كان ولا يزال فى بعض الأمم المتحضرة سلعة تباع وتشتري كأى سلعة من السلع، ليس لها حق فى الميراث، منقوصة الأهلية ليس لها حق فى ممارسة شئونها المالية والقانونية اللهم إلا بعد أن يأذن لها وليها الشرعى ويرضى.

فهى ليست حرة فى أن تبيع وتشتري، وهى ليست حرة فى أن تتصرف فى مالها وعقارها.

والمرأة نصف الأمة كما يقال عليها تبعات جسام فبصلاحها يصلح النشء فهى الحاملة وهى المرضعة وهى المربية وهى الساهرة بالليل وهى المضحية براحتها وسعادتها فى سبيل سعادة الابن وسعادة البنت وسعادة الزوج بل وسعادة البيت كله والعائلة كلها إذا أردنا أن نضع الأمور فى نصابها. فإذا كانت هذه رسالتها وهذه هى أهميتها فلا أقل من أن نجد نفسها فى المكانة التى ترضاها ونرضاه نحن لها.

ويأتى الإسلام بهديه ورحمته ويبعث الله محمد عليه الصلاة والسلام ويقول القرآن الكريم فى شأنه:

(الأنبياء ١٠٧)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

وكما يقول أيضا لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

(التوبة ١٢٨)

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

ويسوى الإسلام بين الرجل والمرأة بغير تفرقة بينهما أو تمييز فى التكليف والجزاء. فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى كان له الجزاء الأوفى وليجزىهم ربهم بأحسن ما كانوا يعملون. استمعوا لقوله تعالى:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

(النحل ٩٧)

ولم يفرق القرآن الكريم بين الرجل والمرأة المخطئة فكلاهما فى نظر القرآن الكريم آثم يستحق العقاب، وهذا عدل لا ريب فيه والمخطئ لا بد وأن يلقي جزاءه، ذكرا كان أم أنثى وهكذا يقول الذكر الحكيم:

الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

(النور ٢)

ثم يزيد القرآن الكريم على ذلك فيحيط المؤمنات بتشريع يحميهن من أن يرميهن رام فيبقى عليهن طاهرات صالحات:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

(النور ٤)

فكأنما يريد الله جلّت قدرته إن لا تثبت تلك الجريمة على المؤمنة وإلا فليأت من يدعى بأربعة شهداء يشهدون على أنها قد أخطأت، وتلك رحمة من الله تختص بها الشريعة الإسلامية دون باقي الشرائع. أما الذي يرمى زوجته فيحدثنا القرآن الكريم عنه فيقول:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾

(النور ٦-٧)

ثم يقول القرآن الكريم:

وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

(النور ٨-٩)

ولقد كانت المرأة في بعض الأمم الحديثة كما كانت من قبل تحرم غالبا من الميراث، إذ أن الميراث حق للرجل دون الأنثى، ومن الأمم المتحضرة في عصرنا هذا ما تنصر الميراث غالبا على الإبن الأكبر وحده دون الأبناء ولكن الإسلام يأتي ويسجل

للمرأة حقها في الميراث، كما يرث الرجل لأنه ما كان الله ليخلقها ثم يظلمها أو يهملها أو ليحرمها من خير والديها مهما كانت قيمته ومهما قل هذا المال أو كثر.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نِّصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

(النساء ٧)

ورب قائل يقول ولكن نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر، وهذا حق لا جدال فيه لأن الله الذي شرع هذا التشريع جعل نفقة المرأة كلها على الرجل مهما كان ثراؤها ومهما كانت أموالها وأملأها وبهذا جعل الله القوامة للرجال على النساء حتى تستقيم الأمور.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ

(النساء ٣٤)

وأن الإنسان الذي يستمع لقوله تعالى:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(الأحزاب ٣٥)

ليحسى بمقدار ما في هذا التعبير الدقيق من المساواة بين المرأة والرجل فهي مطلوب منها أن تقوم بما يقوم به، عليها أن تسلم وتؤمن وتقت وتبصر وتخشع وتتصدق وتصوم وتحفظ نفسها وتذكر الله كثيرا كما يطلب من الرجل تماما، عندئذ كان لها كما له مغفرة من الله وأجرا عظيما.

ثم يزيد القرآن الكريم على ذلك كثيرا فيؤكد إنها مثل الرجل بل هي جزء منه لا تختلف عنه فهي منه وهي له، ولا يقول القرآن ذلك في آية واحدة بل يعيدها ويؤكددها في آيات كثيرة، وفي أكثر من موضع مبينا أن المرأة من الرجل خلقها منه وخلق منهما رجالا ونساء.

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾
(النساء ١)

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
(الأعراف ١٨٩)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفِى الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِإِنْعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(التحل ٧٢)

ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى:

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِةً أَزْوَاجًا
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٍ ثَلَاثٍ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَآئِي تُصَرِّفُونَ ﴿٦﴾
(الزمر ٦)

فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ
فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾
(الشورى ١١)

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن المرأة وأنها من جنس الرجل ليست غريبة عنه

فهي ليست من جنس آخر غير جنسه فهي قد خلقت لتكون له ومعه، ولم يقل القرآن الكريم مثلكم بل قال سبحانه وتعالى من جنسكم، ومن أنفسكم بل ويقول أيضا أنه خلقنا من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها، وفي هذا تأكيد على الأصل الواحد والوحدة الكاملة في الجنس بين الرجل والمرأة والجنس الواحد والأصل الواحد لا يكونان أبدا مدعاة للتنافر بل هما على العكس دعامتان يقوم عليهما الحب وترتكز عليهما الألفة وتؤديان إلى الرحمة والود.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن مكانة المرأة ودورها في حياة الرجل فيقول سبحانه وتعالى:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَةَ وَاللُّوَيْنَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

(الروم ٢١-٢٢)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

(الأعراف ١٨٩)

وهكذا ينتقل القرآن الكريم من أن المرأة خلقت من الرجل فهي من جنسه لا من جنس آخر. وهكذا تكون المساواة بلا قيد أو شرط، ولكنه يبين في أكثر من آية كما استمعنا العلاقة بين الرجل والمرأة تلك العلاقة التي اختار فيها المفكرون جميعا (لتسكنوا إليها) وهذا تعبير آخر جميل ودقيق بقدر ما هو عظيم ومعجز فلم يقل سبحانه وتعالى لتخدمكم، ولم يقل لتنجب لكم ما تشاؤون من البنين والبنات، ولم يقل لترفه عنكم ولكنه يقول قولاً يجمع كل ذلك وغير ذلك فيقول وقوله الحق (لتسكنوا إليها) والسكن هنا الهدوء والإطمئنان والراحة فإن الإنسان إذا أزعجه شيء أو

خاف من شيء بحث عن مكان يسكن فيه، ويحتمى به، وهكذا يقول القرآن الكريم لتسكنوا إليها فهي الركن الذى خصه الله بالحنان وخصه بالهدوء جعل فيه الإطمئنان وزاده الله من فضله بأن جعل فيه المودة والرحمة. يا سبحان الله سكون وهدوء ورحمة وهكذا يضع الله سبحانه وتعالى المرأة فى أحسن صورة يمكن أن توضع فيها فهي السكن، وهي الهدوء، وهي المودة، وهي الرحمة، وهكذا يصفها من خلقها بأشرف الصفات ويضعها فى أعلى مكان.

وعلاقة المساكنة بين الزوج وزوجه هي الأساس المتين لبناء الأسرة المتينة لينشأ جيل جديد سليم يعتز به الأبوان ويعتز به الوطن ويعتز به الدين. والمساكنة هنا تنبعث من غريزة طبيعية يصفها وينظمها من خلق وأبدع هذا الكون فيرتفع بالإنسان الذى خلقه وكرمه الى مكانة عليا أرادها له وهياؤه لها حتى لا يكون مثل الحيوان الأعجم الذى لا تتعدى علاقته بآثائه المحافظة على النوع فقط.

حتى إذا قيل كل هذا عن المرأة لا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد بل يوصى بها الرجال خيرا فيقول:

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ^{٢٠}

(النساء ١٩)

ويقول فى تعظيم حقهن:

وَأَخْذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا^{٢١}

(النساء ٢١)

وهنا يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى كيف يعامل المرء زوجه فيقول (خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي).

ومما يؤثر عنه صلوات الله عليه أنه كان يسابق السيدة عائشة رضى الله عنهما فى الدؤ فتسبقه يوما، ويسبقها فى بعض الأيام فيقول صلوات الله عليه هذه بتلك.

ومما تحكيه السيدة عائشة أيضا عن رسول الله أنها سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء فيسألها رسول الله (أتحبين أن ترى لعبهم) فتقول نعم فيرسل إليهم رسول الله فيجيئون ويقف صلوات الله عليه بين البابين وهكذا تقول

السيدة عائشة ثم يضع كفه على الباب ومد يده فوضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وانظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول أسكت مرتين أو ثلاثة ثم قال يا عائشة حسبك فقلت نعم فأشار إليهم فانصرفوا. ويقول رسول الله (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ولطفهم بأهله). وهذا توجيه كريم وسنة جميلة ودعوة إلى المعاملة الطيبة بين الزوج وزوجته، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل استمعوا لما يحكى عن رسول الله إنه كان بينه وبين السيدة عائشة رضى الله عنها كلام مما استدعى أن يدخل بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكما، ويقول صلوات الله عليه (تكلمين أو أتكلم) فتقول السيدة عائشة (بل تكلم ولا تقل إلا حقا) فيلطمها أبوها حتى دمی فوها قائلا يا عديّة نفسها أو يقول غير الحق. عندئذ تستجير عائشة برسول الله وتقف خلف ظهره فيقول النبي الكريم لم ندعك لهذا، وما أردنا منك هذا. هذا مثل من الحب والود والرحمة والمعاملة الطيبة التي يجب أن تكون بين الزوج وزوجته لا عداوة ولا عدوان، ولا ظلم ولا إنتقام، هكذا يعلمنا رسول الله وهكذا يضرب لنا الأمثال في حياته الخاصة ومعاملاته الخاصة.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(الأحزاب ٢١)

وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

(الحشر ٧)

وما ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى أعده لهذه الرسالة فهو لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن الصراط المستقيم ويقول سبحانه وتعالى:

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ (النجم ١-٤)

ثم تأتي الشريعة الإسلامية لتعطى المرأة حقها الذي لا ينازع في مالها فهي حرة فيه ليس لزوجها أن يأخذ من مالها إلا ما قد تسمح به نفسها.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلَحٍ شِبْهِ مَبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

(النساء ١٩)

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾

(النساء ٤)

حتى إذا دب الخلاف بين الزوج وزوجه والخلاف بين الناس سنة من سنن الحياة فما أكثر ما نختلف وما أكثر ما يدب الخلاف والشقاق بين الأهل والأصحاب لأنفه الأسباب ولا يترك الإسلام هذا الأمر دون أن يضع له تشريعا وسياسة ونظاما استمعوا لقوله تعالى:

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

(النساء ٣٥)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

(النساء ١٢٨)

وهكذا حتى إذا عجز الحكمان عن الإصلاح واستحال التوفيق بينهما وكان الفراق ويقول القرآن الكريم:

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمَا مَسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا

مِمَّا أَنْتَبَهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَ إِلَّا يُقِيًّا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا يُقِيًّا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿٢٣١﴾

وامساك المرأة على كره منها لا علاج له بل هو ضرر لها وللزوج وهكذا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾
 ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ﴿١٩﴾

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مِثْلُهَا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

وهكذا تنظم الشريعة الإسلامية حقوق المرأة وتحميها مما قد يخطر ببال الرجل وتمنعه من أن يظلمها إذا كرهها بل عليه أن لا يأخذ مما آتاها وعليه إن أراد إما أن يعاشرها بالمعروف أو يسرحها بالمعروف.

وإذا كان بعض كتاب الغرب يعيرون على الإسلام الطلاق فما أكثر ما تسمع الآن بمحاولات لإباحة الطلاق وقد أباحتها فعلا بعض البلدان لإعتقادها في شرعيته

وضرورته في كثير من الحالات حيث يكون هو الحل الوحيد الذي لا حل غيره للبقاء على سعادة الرجل وسعادة المرأة.

وليست المرأة في كل الأحوال هي الواقعة تحت رحمة الرجل إن شاء أبقاها وإن شاء تركها، ولكنه، قد يجوز أن تكون العصمة بيدها إن اشترطت هي ذلك قبل الزواج فيكون زمامها بيدها، والحياة الزوجية أمانة في عنقها إن شاءت أبتت عليها، وإن شاءت فالأمر متروك لها وهكذا يكون لها ما للرجل في الإمساك أو التسريح.

وقد يعترض معترض أن الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله مجحف بمصلحة الأولاد، ولو أن الإسلام قد بين حدوده فيما اشترط فيه من نفقة وحضانة ورعاية وما من عاقل يقول أن تربيته الأبناء بين أبوين غير متفاهمين ولا متحابين خير للأبناء بل هو شر لهم ولآبائهم.

والقرآن الكريم يبين ذلك في محكم آياته فيقول:

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

(البقرة ٢٣٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(سورة الأنفال)